

٢- ذكريات من إيطاليا

لقلم الأستاذ زكي محمد حسن
عضو بعثة الآثار الإسلامية بالسربون بباريس

سيرا كيبوز - نابلي - برطارد فيزوف - بومبي - روما

ولدينا في مصر مثل هذه الحفريات الأثرية : أهمها ما بدأها المرحوم «على بهجت بك» للكشف عن القسطنطين (العاصمة العربية الأولى للديار المصرية) ؛ ولا تزال دار الآثار العربية تواصل أعمال الحفر بإشراف مديرها الحالي المسيو (فييت) ؛ ومنها أيضاً ما تقوم به جماعة (The Egyptian Exploration Fund) لكشف قل العمارنة عاصمة مصر في عهد الملك (اخنانون). وأطلال (بومبي) - رغم ما تبعته في النفوس من رهبة وما تنيره من ذكريات التاريخ ، واحترام لجلال الموت وعظمة الحياة التي طغى عليها البركان فوضع لنتفاتها حداً - أقول رغم كل ذلك فإنها تشهد بالمهارة والدقة والمنابعة لمن قام من العلماء بهذه الحفريات ؛ فإن السائح يسير في شوارع كاملة بين صفوف من المنازل ، كثير منها باقية أكثر معالمه ، حتى النقوش على جدران المنازل باق أكثرها يشهد بعظمة الرومان وعلو مدينتهم ، فتسارة يرى السائح سوق المدينة وحماماتها ، وأخرى أقواس النصر المختلفة ، وأحياناً منازل لم تعبت بها يد الزمن فكأنها تصلح للسكنى ؛ وكان القوم يريدون أن تبقى - مما حدث - ذكرى حية ، فتراهم في حجرة صغيرة أحاطوا جانبيها بالزجاج وقد تركوا بقايا أسرة دهما البركان لجمعها في الموت ، وكان عظامها ترغم السائح أن يرفع الرأس ليرى (فيزوف) ويهجم : هل خدمت نائوته ، أم لا زال يضرر للإنسانية ما يضرر ؟

انتهت زيارتي من (بومبي) ، وقلت راجعاً في القطار ، ولكنني تركته في محطة عند منتصف المسافة إلى (نابولي) ، ومن هذه المحطة يبدأ الترام الذي يصعد على سفوح المرتفعات حتى يصل إلى قمة البركان ، وقد بدا لي ثمن التذكرة باهظاً للذهاب والإياب وقدره نحو سبعين قرشاً ؛ ولكنني وجدت - بعد ذلك - أن المسافة طويلة والرحلة غاية في الإبداع ، إذ بدأ الترام يصعد بنا سفوح المرتفعات في منتصف الساعة الثالثة ، وظل يدور بنا حولها مرتصفاً شيئاً فشيئاً ، وعلى جانبيها مسافات ممتدة من الكروم تغطي الجزء الأدنى من سفوح هذه

لمرتفعات ، وفي منتصف المسافة تركنا هذا الترام إلى غيره من نوع آخر (Funicolare) ظل يصعد بنا صعوداً أفقياً مباشراً ، حتى وصلنا نهاية الرحلة في منتصف الساعة الرابعة ؛ وكان المنظر جميلاً رائعاً ؛ فتحت أقدامنا (نابولي) وضواحيها تطل على بحر يغب في الأفق ، ويملأها طبقات اللاط والرمد ، وقد بقيت حارية في الجزء المباشر للبركان ، وغطتها الكروم في الجزء الذي يقرب من المساكن والمزارع ؛ وإذا أولينا المدينة والبحر ظهورنا ، ظهرت أمامنا فوهة البركان الحالية ؛ إذ أننا نعلم فوهته القديمة ، وهي أكثر ارتفاعاً من الفوهة الحالية التي تخرج منها سحب من الدخان تتوج البركان وتزيد عظمة على عظمة ؛ والقوم لا يقفون عند هذا الحد ، بل هناك أدلاء مخصوصون يستلمعون أن يصلحوا من يريد من السواح فيهبطوا به من الناحية الأخرى إلى موضع أقرب إلى الفوهة الحالية ، كل ذلك لقاء نحو خمسة وعشرين قرشاً ، فدعني حب الاستطلاع إلى الإقدام على ذلك ، ولكني لم أستطع أن أوصل السير إلى النهاية ، لأن رائحة المذخوفات البركانية كادت تخنقني تماماً ، فطلبت الرجوع ، بينما واصل السير مع دليل آخر شاب ألماني ، غير أنه لم يستطع إلا أن يرجع بعد خطوات أخرى .

وكننا في رحلتنا هذه ثمانية : شابين ألمانيين ، وإنجليزى ، وسيدتين إنجليزيتين ، وهولندى ، وأنا ؛ وكان الجو رطباً بارداً ، ولا غرابة في ذلك ، إذ كنا على بعد ١٢٠٠ متر من سطح البحر .

وهكذا انتهت زيارتي لـ (نابولي) وتركتها إلى (روما) ؛ فكان القطار ينهب بنا الأرض بين جبال عالية ، وسهول تكسوها الخضرة والكروم ، وتنفق كثيرة يجتازها بين حين وآخر ليعبر هذه الجبال ؛ وذكرني منظر الريف الإيطالي بقرانا في مصر وما عليه فلاحونا من بؤس وشقاء ، ، ولم يسعني حين ذلك إلا أن أذكر ما عليه القرى في إنجلترا وفرنسا وسويسرا من جمال يحجب إلى المرء ترك المدن وضواحيها .

وأخيراً وصلنا (روما Caput Mundi) أو (عاصمة الدنيا) - كما كان يسميها الرومان - وهي وإن تكن فقدت مركزها هذا من وجود عدة ، إلا أنها لا تزال - بحق - سيدة عواصم العالم بآثارها القديمة ، بل إنها تجمع عاهلين : عاهل التليان ، وعاهل المسيحية ، غير أننا إذا استثنينا غناها بكنوزها الأثرية ، فإن (روما) لا تساوى عواصم الدول الكبرى جمالا ونسباً ، ولذا منذ أن دخلتها جيوش الملك - بعد تمام الوحدة الإيطالية - سنة ١٨٧٠ كان هم أول الأمر فيها القيام بالإصلاحات اللازمة لإبلاغها تلك المرتبة ، ولكن قامت دون ذلك صعوبات ، أهمها : قلة المال ، وازدحام المدينة بالآثار القديمة والأطلال البالية

ازدحاماً يتعارض مع المدنية الحديثة وتنظيم العواصم الكبرى ، وخاصة إذا لم يجرؤ القوم على تضحية بعض هذه الأطلال في سبيل تنظيم المدينة وتنسيقها .

وقد لجأ رجال (روما) إلى البارون (هوسمان Haussman) - الذي كان محافظاً لمقاطعة (السين) بفرنسا ، واشتهر بأعماله العظيمة في سبيل تنظيم (باريس) وتجميلها - في أواخر القرن الماضي ، فأقنوا بأن يتركوا (روما) القديمة ، وأن يبنوا بجانبها مدينة جديدة ، فلم يلق أذناً صاغية ، ولكن القرائن تدل على أنهم يعودون الآن إلى رأيه شيئاً فشيئاً .

أما (موسوليني) فقد اهتم بذلك ، وكون - منذ سنتين - لجنة فحست المسألة ملياً ، ورأت القيام بإصلاحات عدة ، مع المحافظة - قدر المستطاع - على الآثار القديمة ، ووافق الرئيس على ذلك ، وبدأت الإصلاحات حول (الكايتول) ، حيث هدموا بعض الطرق والكنائس والبيوت القديمة ، فنأدى كثير من الناس - وأكثرهم من الأجانب - بالويل والنبور ، مدعين أن ذلك سوف يقضى على (روما) ولونها الخلى وخواصها الفنية ؛ فرد عليهم من منصة مجلس الشيوخ مدير سابق للهنوز الجميلة ، وندد بأولئك الذين يريدون أن يتخذوا الفن والجمال حجة لبقاء الأبنية الختيرة ، والجدران القذرة ، والأحواش الضيقة ، وغير ذلك ؛ وتداخل (موسوليني) قصه في المناقشة ، فقال : « إن الآثار العظيمة مكفول احترامها ، وإنما المهم أن يفرق بينها وبين الخرائب والأطلال مما يدعى البعض أنه لازم لبقى ل (روما) لونها الخلى ... » ، وقال في ختام خطبته : « كل هذه الأطلال والخرائب القذرة سندفع بها إلى صاحب الجلالة المعول ، فيقوض أركانها باسم جمال العاصمة وشئونها الصحية . ولا ريب أن هذه الخطة المثلنى ستوسع المجال لظهور الآثار الباقية ، وستريل عن (روما) تلك المسحة الشرقية التى يشعر بها السائح فى كثير من أحيائها .

وأكبر ما أعجبنى من آثار (روما) ميدان القديس بطرس ، فهو عظيم بىضاوى الشكل ، قووم فى وسطه مسلة مصرية كبيرة ، وتطل عليه كنيسة القديس بطرس ببهوها الفخم ، وإلى يمينه قصر (الفاتيكان) مقر الباباوات ، وداخل هذه الكنيسة غاية فى الإبداع ، وسقفها مدهش فى دقة الصنع والنقش ، بناها الإمبراطور قسطنطين ، وهى الآن أنظم معابد العالم .

وفى الفاتيكان متحف يحوى أعظم التحف الأثرية ، وأكثر ما أبدعه رجال الفن منذ العصور القديمة ، وبينها هدايا إلى الباباوات من مشارق الأرض ومغاربها ، وقد لنت نظرى منها إناه كبير من المرمر ، كتب تحته بالإيطالية: (Dono de Mehemet Ali viceré dell'Egitto) ، ومعناها: شدية من محمد على والى مصر إلى بيوم التاسع ؛ ذلك عدا نحو ثلاثين من شواهد القبور الإسلامية عليها قوش بالكوفية ، وبه قسم للآثار المصرية القديمة ، غنى بكنوزه عظيم فى تنسيقه .

و (روما) تفوق العالم كله بكنائسها الجميلة ، وفي وسطها تقوم أطلال الأبنية الرومانية القديمة ، (كالكولسيوم) و (الفورو رومانو) مركز الحياة الرومانية ومكان الاجتماعات والنورات والحفلات ؛ ومن مميزاتهما أيضاً : أقواس النصر العديدة التي كانت تقام لأبطال الرومان بعد انتصاراتهم الباهرة ، و (الكايتول) الذي كان يجتمع فيه مجلس (روما) البلدي ، وقد بنى في القرن الرابع عشر ، وسلامه من عمل (ميشيلانجلو) ؛ وهناك أيضاً حدائق (بورغيزي) ومتحفها الجليل ، وبجربتها العظيمة ، وفي ميدان العامة (Piazza del Popolo) مسلة مصرية من الجرانيت ارتفاعها أربعة وعشرون متراً ، قلها (أوغسطس) إلى (روما) بعد معركة (أزيو) .

وهناك أيضاً (الباتيون) ، وقصر (الكورينال) الذي بنى في القرن السادس عشر ليكون مقراً للباباوات ، ثم ميدان العمود - نسبة إلى العمود الذي أقيم فيه ذكرى ل (ماركوس أوريليوس) بعد انتصاره على الجرمان - ، وقصر انقديس (أنجلو) الذي بناه الامبراطور (أدريان) ليكون مدفناً له وخلفائه .

وفي ميدان (فينيسيا) قصر الرئاسة ، حيث يطل (موسوليني) من شرفة غرفته على جيوش (الفاشيست) ، وفيه أيضاً هيكل النصر وقبر الجندي المجهول .

هذا و (روما) تختلف كثيراً عن عواصم أوروبا الأخرى ، ولعل أهم ما يلفت النظر خلوها من ترام في باطن الأرض كما هي الحال في : لندن ، وباريس ، وبرلين مثلاً ؛ ومن ثم لاحظت ازدحام (الترام) و (الأوتوبيس) دائماً ، فضلاً عن ازدحام الشوارع الرئيسية . ومن الظواهر التي شاهدتها في إيطاليا كلها : قلة النساء في الطرقات ؛ ففي (روما) تسها نسبة النساء إلى مجموع المائة أقل بكثير منه في (لندن) و (باريس) ، ولعل ذلك راجع إلى أن المرأة الإيطالية لا تزال أكثر تحفظاً من زميلاتها : الإنجليزية ، أو الفرنسية ، أو الألمانية ؛ ومن ثم كانت أكثرهن لزوماً لبيتهن ، وأقلهن اختلاطاً بالحياة العامة .

مرت الأيام سراعاً ، ولم يكن كل ما أراه ليخفف من حنيني إلى باريس ، فسرني أن حان وقت الرحيل إليها ، وذكرت قول شوق من قصيدة له فيها :

زعموك دار خلاعة ومجانة ودعارة يا إفاك ما زعموك
 إن كنت للشهوات رياً ، فالعلا شهواتهن مرويات فيك
 والعلم في شرق البلاد وغربها ما حج طالبه سوى ناديك
 العصر أنت جماله وجلاله والركن من بنيانه المسوك

زكي محمد حسن

[باريس]

عضو لجنة وزارة المعارف